قراءة جمالية بلاغية في مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام

الأستاذ المساعد الدكتور
سمية حسنعليان
جمهورية إيران الإسلامية
جامعة إصفهان ـ كلية اللغات الأجنبية ـ قسم اللغة العربية وآدابها
shassanalian@yahoo.com

الملخص:

لقد ترك لنا الأئمة الأطهار عليهم السلام تراثا ضخما من العلوم والمعارف في مختلف المجالات والحقول وعلينا أن نقف أمامه وقفة الإجلال والإكبار فضلا عن أن هذه كلها تقتضي الدراسة والتحقيق ومن خلال ذلك يمكننا التعرف على جم غفير من المعارف التي تساعدنا على السير في درب حياة سعيدة. ومن جهة أخرى فالبلاغة في الحقيقة هي الجمال الفني في النص الأدبي وبها تظهر روائع النص ومدي إبداعه وللعودة إلى تراث آل البيت عليهم السلام وإعادة قرائته وكشف جمالياته أهمية خاصة. فمن هذا المنطلق هذا البحث محاولة لقراءة جمالية بلاغية في مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام بمنهج وصفي ـ تحليلي؛ للكشف عن الجمال الفني فيها. وللوصول إلى الغاية المنشودة يتحدد البحث بمكاتيب الإمام الصادق عليه السلام ولذلك ركز على كتاب مكاتيب الأئمة عليهم السلام المجلد الرابع الذي يجمع بين دفتيه مكاتيب الإمام الصادق والكاظم عليهما السلام، الذي قام بجمعه على الأحمدي الميانجي، وحققه وراجعه مجتبي فرجي، وقد نشره دار الحديث بقم المقدسة، عام ١٤٢٦ هـ.

من أهم ما حصل البحث عليه هو أن الإمام الصادق عليه السلام قد أحسن الاختيار في الألفاظ والتراكيب إذ لكل منها فائدة فنية تغني النص وتتناسب مع الغرض. وللمحسنات البلاغية كالاقتباس والسجع والتضاد والتضمين دور فعال في إضفاء الجمال على النص فضلا عن المزية في المعنى ويتغير أسلوب الإمام عليه السلام حسب نوع المكاتيب وإن غلب عليه الطبع والترتيب والانسجام في كل نوع.

الكلمات المفتاحية: الإمام الصادق عليه السلام؛ البلاغة؛ الجمال؛ المكاتيب؛ الطبع.

١. المقدمة:

البلاغة فن لا يتحلى به كل إنسان ولكن مما لا بد ذكره هنا أن العلاقة بين الإنسان والبلاغة باعتباره فن وثيقة وقديمة ((لأن طبيعة الفن ليست قاصرة على العمل الفني في حد ذاته فحسب ولكنها مرتبطة أيضا بشخصية الفنان المبدع له وهي كذلك ذات اتصال وثيق بالمجتمع الذي من أجله قام الفنان بإبداع وابتكار هذا الفن)) (محمد حسن، د.ت، ١٦)؛ وخلال هذا فالفن وسيلة من وسائل التعبير عن انفعالات الإنسان وعواطفه وخبراته واستثاراته في الحياة في قالب تشكيلي تحسب فيه العلاقات بين الخطوط والمساحات والألوان وبين أنواع التوافق والتباين والاتزان (البسيوني، ١٣٩٨.ق، ٤٦).

هذا من جهة ومن جهة أخرى فمن الخطأ أن نتصور أن التراث شيئا مضي وانقضي وأصبح جزءا من التاريخ، بل لا بد أن نعتبره مظهرا لعبقرية الأمة الإسلامية وخاصة إذا كان هذا التراث يتعلق بالأئمة الأطهار عليهم السلام؛ وهذا هو الذي يبعث آمال الأمة ويلهم إليهم مشاعرهم والانقطاع عنه يؤدي إلى هدم الأساس الذي تقوم عليه الحضارة الإسلامية وفي زماننا هذا إذا أردنا أن نستعيد أمجادنا وحضارتنا ما علينا إلا أن نتوجه إلى ما ترك هؤلاء الطيبون لنا بما يناسب وحاجات مجتمعنا الإسلامي؛ فضلا أن عدم الاهتمام بهذا التراث أو ضعف الاهتمام به يؤدي إلى أزمة فكرية في تربيتنا المعاصرة تتمثل في تجاهلنا لقيمته وأهميته في بناء شخصية الأمة وإعطائها الهوية الثقافية المميزة.

إذا العودة الصحيحة والسليمة إلي الينبوع لا تكون بالعودة إلى مظاهر المجد والزهو في حضارتنا فقط، بل إلى أسباب عظمته فالتاريخ غني لاستخلاص قوانين حركته (الراوي، ١٩٨٤م، ٢٩).

من هذا المنطلق يستهدف البحث هذا إلى إعادة قراءة مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام برؤيه بلاغية جمالية.

حدود البحث:

ولذلك ركز البحث على كتاب مكاتيب الأئمة عليهم السلام المجلد الرابع الذي يجمع بين دفتيه مكاتيب الإمام الصادق والكاظم عليهما السلام، الذي قام بجمعه على الأحمدي الميانجي، وحققه

وراجعه مجتبى فرجي، وقد نشره دار الحديث بقم المقدسة، عام ١٤٢٦ هـ.

أسئلة البحث:

والأسئلة التي يستهدف البحث الإجابة عنها تتخلص في:

- ما جماليات بلاغية في مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام؟
- كيف تجلت مقاييس الجمال البلاغي (كالطبع، والانسجام، والترتيب و..) في تعابير الإمام الصادق عليه السلام في مكاتيبه؟

منهج البحث:

والمنهج الذي توخاه البحث للإجابة عن الأسئلة هو الوصفي ـ التحليلي الذي يعد من المناهج الموضوعية ويعتمد على التحليل والعقل، وينتقي الباحث فيه ما يخدم بحثه ودراسته ومن ثم يقوم بدراسة ما جمعه واختاره للوصول إلى نتائج علمية، وهذا المنهج من أهم المناهج في الدراسات الإنسانية.

وانسياقا من هذا وللإجابة عن أسئلة البحث انتظم البحث في عدة محاور منها: المقدمة ونبذة عن الإمام الصادق عليه السلام وعصره وموجز عن أهمية البلاغة ومكانتها في رقي الأدب وتنمية الذوق وإرهاف الحس وتهذيب العقل والعاطفة.

الدراسات السابقة:

أما بالنسبة إلى الدراسات السابقة فجدير بالذكر أننا لو قسمنا الدراسات إلى أقسام مختلفة تشمل الكلمات الأساسية في البحث فنجد أن الدراسات والبحوث في موضوع البلاغة كثيرة لا حد لها، في كلا القسمين التنظيري والتطبيقي؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى البحوث التي أجريت على الإمام الصادق عليه السلام؛ وذلك بين المسلمين والمستشرقين؛ إذ درسوا الجوانب المختلفة لحياته وخاصة الناحية العلمية منها؛ إذ كانت تلك الفترة منعطفا في التاريخ الإسلامي وبلغت الحضارة الإسلامية والعلوم الإسلامية ذروتها وكل ذلك بفضل الإمام الصادق عليه السلام وتلامذته الذين أخذوا في بناء مشروع حضاري كبير. ولكن بالنسبة إلى عينة البحث أي مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام التي جمعها على الأحمدي الميانجي في كتابه فلم

نحصل على بحث جامع كامل واف لحق هذا الموضوع أن يدرس مكاتيب الإمام دراسة بلاغية جمالية.

٢. نبذة عن الإمام الصادق عليه السلام وعصره:

قد اختلف المؤرخون في السنة التي وُلد فيها الإمام جعفر الصادق عليه السلام وهذه بعض الأقوال: ١. إنّه وُلد بالمدينة المنورة سنة (٨٠هـ) ٢. وُلد سنة (٨٣هـ) يوم الجمعة ويقال يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول ٣. وُلد سنة (٨٦هـ). امتدّ عصر الإمام الصادق من آخر خلافة عبد الملك بن مروان إلى وسط خلافة أبي جعفر المنصور أي سنة (٨٣ إلى سنة وفاته ١٤٨هـ). لقد قطع الإمام الصادق عليه السلام المرحلة الأولي من حياته قدرت باثنتي عشر عاماً وهو في كنف جدّه إمام المتقين الإمام زين العابدين عليه السلام وأقام تسع عشر سنة مع أبيه الذي هو من كواكب العترة الطاهرة ومن أعلام هذه الدنيا. من ناحية التاريخية والسياسية عاش الإمام الصادق عليه السلام في أدقّ الحقبات. (القرشي، ١٩٩٢م).

عاش الإمام الصادق عليه السلام زمن التحولات الكبيرة فشهد زوال الحكم الأموي وقيام الحكم العباسي وكان العصر فترة تزلزل الحكم الأموي واشتداد شوكة العباسيين، وكان الطرفان في صراع مستمر حتى انتصر العباسيون عام ١٣٢ هجرية. والظروف السياسية اقتضت أن تكون تلك الفترة التي عاش فيها الإمام فترة هدوء وحرية نسبية للإمام الصادق وشيعته، فكانت فرصة مناسبة جداً لتفعيل نشاطهم العلمي والثقافي. وذلك لأن الأمويين كانوا منشغلين بالمشاكل السياسية الكثيرة والعباسيين أيضا كانوا يدعون أنهم يدافعون عن أهل البيت وقاموا على الدولة الأموية بشعار ((الرضا من آل محمد)) ولم يضايقوا الإمام قبل أن يستلموا مقاليد الحكم.

وأن هذا المجتمع كان يزخر بأنواع مظاهر الفساد والانحراف عن البعد العقائدي والفكري وأصبحت هذه الأفكار خطرا على الإسلام وكيانه حيث بدأ الضلال يدب في النفوس ووجدت الأفكار الضالة طريقها إلى العقول وكان كل ذلك لتشويه الإسلام والنسل من كرامته وهناك فرق مختلفة وبعض البؤر التي كانت تدعي الأصالة في الفكر الإسلامي كالخوارج والمرجئة والمعتزلة والزندقة والغلاة و..

واتسم هذا العصر الذي عاشه الإمام الصادق عليه السلام بظهور الحركات الفكرية ووفود الآراء الاعتقادية الغريبة إلى المجتمع الإسلامي وأهمها عنده هي حركة الغلاة الهدامة (السبحاني، ٤٥). فمع القرن الثاني للهجرة نبتت الفرق الكلامية وسادت النظرات الفلسفية وتزاحمت الأديان بعث الميت منها: كالمانوية والمزدكية والزرادشتية والصابئة والدهرية ... (الشهرستاني، ٢٠٠٨م، ٢: ٧٢).

كان عصر الإمام الصادق عليه السلام العصر الذهبي الذي يستشرق منه التاريخ أنواره ويستمد منه بهجته .. إنّ الإمام عليه السلام شرع بالرواية عن جدّه وآبائه عندما اندفع المسلمون إلى تدوين أحاديث النبي صلى الله عليه وعلى آله بعد الغفلة التي استمرّت إلى عام ١٤٣ه حيث اختلط آنذاك الحديث الصحيح بالضعيف وتسرّبت إلى السنّة، العديد من الروايات الاسرائيلية والموضوعة من قبل أعداء الاِسلام من الصليبيين والمجوس، بالاِضافة إلى المختلقات والمجعولات على يد علماء السلطة ومرتزقة البلاط الأموي ومن هنا فقد وجد الاِمام أنّ أمر السنّة النبويّة قد بدأ يأخذ اتّجاهات خطيرة وانحرافات واضحة، فعمد للتصدّي لهذه الظاهرة الخطيرة، وتفنيد الآراء الدخيلة على الإسلام والتي تسرّب الكثير منها نتيجة الاحتكاك الفكري والعقائدي بين المسلمين وغيرهم وإنّ تلك الفترة كوّنت تحدّياً خطيراً لوجود السنّة النبويّة، وخلطاً فاضحاً في كثير من المعتقدات، لذا فإنّ الإمام كان بحقّ سفينة النجاة من هذا المعترك العسر (السبحاني، ٧٩).

ويمكن حصر الأسباب التي أوجبت حدوث الحركة العلمية العظيمة في عصر الإمام الصادق عليه السلام والنشاط الفكري والثقافي فيه في الأُمور التالية: ١ـ حرية الفكر والعقيدة في الإسلام، ولم يكن العباسيون بلا تأثير في هذه الحرية الفكرية قطعاً، غير أنّ لهذه الحرية جذورا في تعاليم الإسلام بحيث لو كان العباسيون يريدون الوقوف أمامها لما كان بمقدورهم ذلك، ٢ـ كانت البيئة الإسلامية آنذاك بيئة دينية تماماً، وكانت الدوافع الدينية هي التي تحرك الناس، كما أنّ لتشجيع نبي الإسلام على طلب العلم، وحثّ القرآن على التعليم والتعلّم وتأكيده على ذلك وعلى التفكير والتعقّل، الدور الأساسي في تنشيط وتفعيل هذه الحركة العلمية، ٣ـ كان للقوميات والأُمم التي دخلت الإسلام خلفية فكرية وعلمية، وكان لبعضها مثل العنصر الفارسي ـ الذي كان له خلفية حضارية أكثر ازدهاراً ـ والمصري والسوري

حضارات عريقة في تلك الفترة، فراحت هذه الأُمم وبدافع فهم تعاليم الإسلام بشكل معمّق تبحث وتتفحص وتتبادل الآراء فيما بينها، ٤ـ التساهل الديني أو التعايش السلمي مع غير المسلمين خاصة التعايش مع أهل الكتاب فقد تحمّل وقبل المسلمون أهل الكتاب ولم يروا في ذلك مخالفة لعقيدتهم الدينية، وكان لأهل الكتاب في تلك الفترة علماء وخبراء وكان المسلمون يواجهونهم مواجهة علمية، وكان هذا بدوره يؤدي إلى الجدل والبحث والمناظرة (السبحاني، ١٣٥ نقلا عن المطهري، ١٤٢ـ ١٦٠).

ولم تتخذ الآراء الدينية اتجاها فلسفيا إلا عند الفاطميين ذلك أن انتشار العلم في ذلك الحين أطلق روح البحث والاستقصاء وأصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل مجتمع من المجتمعات والجدير بالذكر أن زعامة تلك الحركة الفكرية إنما وجدت في تلك المدرسة التي ازدهرت في المدينة والتي أسسها حفيد على بن أبي طالب المسمى بالإمام جعفر الملقب بالصادق وكان رجلا بحاثة ومفكرا كبيرا جيد الإلمام بعلوم ذلك العصر ويعتبر أول من أسس المدارس الفلسفية الرئيسة في الإسلم ولم يكن يحضر محاضراته أولئك الذين أسسوا فيما بعد المذاهب الفقهية فحسب بل كان يحضرها الفلاسفة وطلاب الفلسفة من الأنحاء القصية وكان الإمام الحسن البصري مؤسس المدرسة الفلسفية في مدينة البصرة وواصل بن عطاء مؤسس مذهب المعتزلة من تلاميذه الذين نهلوا من معين علمه الفياض .. (البعلبكي، ١٩٣).

((أمّا تآليف الإمام الصادق عليه السلام كثيرة. منها رسالة في شرائع الدين. ووصاياه للإمام الكاظم عليه السلام. ورسالة في الغنائم ووجوب الخمس، وتوحيد المفضل، وكتاب الأهليلجة، وكتاب مصباح الشريعة، وكتاب مصباح الحقيقة، ورسالة إلى أصحابه، ورسالة إلى أصحاب الرأي والقياس. ورسالة لمحمّد ابن النعمان. وأخري لعبد الله بن جندب. ورسالة في وجوه المعايش للعباد. ووجوه إخراج الأموال. ورسالة في احتجاجه على الصوفية فيما ينهون عنه من طلب الرزق، ورسالة حكم قصيرة. كان تلاميذ الإمام الصادق مدونين كباراً ومن بعد وفاة الإمام الصادق في سنة (١٤٨ هـ) دوّن أربعة آلاف من التلاميذ في كلّ علومه، ومن جملتها ما يسمي ((الأصول الأربعمائة)). وخير ما جمع منها كتب أربعة هي مرجع الإمامية في أصولهم وفروعهم إلى اليوم. وهي ((الكافي)) للكليني، و((من لا يحضره الفقيه)) لابن بابوية القمي، و((التهذيب)) و((الاستبصار)) لمحمّد بن الحسن بن الطوسي)) (الجندي، ١٩٧٧م، ٢٠٦).

فقد ضمت مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام بين دفتيه على نظريات اجتماعية وعلمية نفيسة لأن الإمام كان يهدف في رسم طريق الإصلاح وبناء مشروع حضاري كبير وبدأ هذا المشروع بنشر بذور طاقته العلمية ولا ننسي أن ما طرحه الإمام الصادق عليه السلام في مكاتيبه بأنواعه المختلفة هي حقائق علمية ثابتة ورصينة وتوجيهات شاملة تخدم المجتمع الإنساني في كل عصر وتكون صالحة لكل زمان.

٣. مكانة البلاغة وجمالها في الأدب العربي:

من العلوم التي احتلت مكانة مرموقة ومنزلة سامية بين العلوم العربية هي البلاغة وهي التي تتعلق بالكلام وبالمتكلم، وقد تبين في تعريف الراغب الأصفهاني لها أنه لا بد أن تستجمع بلاغة الكلام أمورا ثلاثة هي: صحة اللغة وصوابها ويعني ذلك سلامة الألفاظ من العيوب، وأن يكون المعنى المقصود للمتكلم مطابقا ومنسجما مع الألفاظ التي استعملها المتكلم، وأن يكون صادقا في نفسه (حسن عباس، ١٩٩٧م، ٥٧)؛ وقد عرفها صاحب التلخيص بقوله: ((البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضي الحال مع فصاحته فالبلاغة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى بالتركيب)) (الخطيب القزويني، ١٩٨٤م، ٣٣). ولكل من العلماء والأدباء تعريف لهذا المصطلح ولا يسعنا في هذا الموجز أن نستقصي كل ما قيل في تعريف البلاغة ولكن الدقة في كل هذه التعريفات تدلنا على أن كلهم كانوا ينظرون للبلاغة على أنها وسيلة هامة للتعبير عما يجول في النفس الإنساني بشكل يمنع من سوء التعبير وسوء الفهم إذ يصل به المعنى إلى القلب. والبلاغة لا تستقل عن اللغة بل هي الأداة التي تساع اللغة على أداء وظيفتها التي هي التعبير أو الإبلاغ واشتقاق اللفظة من مادة ((بلغ)) يدل على وظيفتها الأساسية.

ولعل وصف البلاغة بالفن مناسب وهو خير ما يعبر عن تلاقي العلم والذوق في البلاغة ((إذ أن الفن علم يعبر عن الذوق وهو أيضا ذوق يعتمد على العلم وكذلك شدن البلاغة إذ هي مقياس لجودة الكلام وسلامته وجماله وعن طريقها يكون التفاضل بين طبقات الكلام من البيان المعجز إلى العامي الساقط .. ولا بد في البلاغة من أن تكون قادرة على إشعارك بالجمال عن طريق الذوق والحس ثم قادرة على إقناعك بلطف ذوقك ورهافة حسك عن طريق العقل والعلم)) (المبارك، د.ت، ١٢٤).

وعندما ندقق في تاريخ العرب من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر فنلاحظ أن البلاغة في نظرهم أمر مقصود وكانت توجد في كلام الخطباء والشعراء قبل الإسلام بشكل عملي وكانوا يعرفونها قبل أن تعرف بالمصطلحات والتعريفات كأنهم فطروا عليها وعشقتها نفوسهم وهدتهم إليها سلائقهم. ولكن زادت حيرتهم عندما سمعوا القرآن فانصدموا بما عرفوا فيها من الأساليب البلاغية وحاروا في تعليل إعجابهم وعرفوا في القرآن البلاغة معرفة الفطرة ومن خلال بلاغة القرآن ظهر للكثيرين ممن آمنوا به وممن لم يؤمنوا به أنه إعجاز ولذلك الكثير من المؤلفات التي ناقشت موضوع إعجاز القرآن ولغته جعلوا بلاغته نصب أعينها للكشف عن جانب من الإعجاز القرآني. وانسياقا من هذا مثل باقي العلوم العربية زاد علم البلاغة أهمية وسموا ببركة القرآن الكريم، إذ نشأت وترعرعت تحت رايته، ووصلت القمة في التأليف البلاغي من خلال كتابَي عبد القاهر الجرجاني في شرحه لفكرة النظم التي عزا إليها إعجاز القرآن الكريم. إذًا فكرة إعجاز القرآن كانت السبب في وضع كثير من الكتب كما قال الخطيب القزويني في مقدمة كتابه: ((علم البلاغة وتوابعها من أجل العلوم قدرا إذ به تعرف دقائق العربية وأسرارها وتكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارها)) (الخطيب القزويني، ١٩٨٤م، المقدمة).

تطورت البلاغة عبر التاريخ وتحولت من كونها صفة للكلام إلى أن صارت علما ذا قواعد وأقسام و كانت تمت بصلة وثيقة بالعلوم الأخرى كاللغة والنقد والأدب و.. وإن أصابها نوع من الجمود في تاريخها لما علق بها من الفلسفة والمنطق وابتعدت عن اللغة الحية وجعل هذا الموضوع الكثيرين يدعون إلى إعادة النظر في مفهوم البلاغة وعرضها في ثوب جديد.

٤. جماليات البلاغة في مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام:

في هذا القسم من البحث سندرس مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام دراسة جمالية بلاغية وذلك على أساس مقاييس الجمال البلاغي في التعابير بغض النظر عن المضامين العالية والفحوى الجميل الذي تضمه هذه المكاتيب وهذا موضوع يتطلب دراسة مستقلة.

- **حسن الاختيار للألفاظ والتراكيب:**

مهمة الأديب البليغ ليست يسيرة سهلة في صياغة النص الإبداعي المتميز لأنه يقف موقف المتخير فعليه أن يختار أفضل المواد وأحسن القوالب ومن هنا يأتي دور الاختيار

بوصفه مبدأ بلاغي هام لا بد من مراعاته في مراحل تكوين النص، وهذا ما أكد عليه الأدباء من القديم من حسن الاختيار والترتيب وخاصة في اللغة الشعرية. وعندما ندقق في المعجم اللغوي لمكاتيب الإمام الصادق عليه السلام نجده يتحلى بهذه الصفات ويتميز بهذه السمات ألا وهي:

أن ألفاظه ليست غريبة وحشية ولم يستعمل هجنة في الكلام يرفضها الذوق السليم. كما أشار ابن سنان الخفاجي إلى هذا المهم وعده من مقاييس البلاغة (ابن سنان الخفاجي، ١٣٨٩هـ، ٥٦). كما أنها ليست سوقية مبتذلة ساقطة.

وإن تكون الفصاحة أمرا نسبيا تختلف من عصر إلى عصر ولكل عصر لغته الخاصة ولكن قارئ كلام الإمام في عصرنا هذا أيضا لا يواجه مشكلة وصعوبة في فهم كلامه. وعدم التجاء الإمام بالغريب من المفردات ووحشيها لو دل على شيء ليدل على ذوق الإمام النقي واقتداره في الإبداع لأن اللاجئ إلى الغريب هو الذي يقصر طبعه عن الوصول إلى الأحسن إذ ((الاستعانة بالغريب عجز)) (أبو هلال العسكري، ١٤٠١هـ، ١٢).

- ((واعلم أن خلاصك ونجاتك في حقن الدماء وكف الأذى عن أولياء الله والرفق بالرعية والتأني وحسن المعاشرة مع لين في غير ضعف وشدة في غير أنف ومداراة صاحبك ومن يرد عليك من رسله وارتق فتق رعيتك بأن توقفهم على ما وافق الحق والعدل إن شاء الله تعالى)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ١٤٦).

هذه الفقرة تضم المفاهيم العالية الأخلاقية التي لابد للإنسان أن يتحلى بها في الحياة الاجتماعية ولكن جاءت بعبارات سلسة بسيطة ضمن مواعظ الإمام عليه السلام.

كما تتميز ألفاظ مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام بالدقة وهذا من مقاييس البلاغة وجمالها وقال ابن الأثير: ((ومن عجيب ذلك أنك تري لفظتين تدلان على معنى واحد وكلاهما حسن في الاستعمال وهما على وزن واحد وعدة واحدة إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه بل يفرق بينهما في موضع السبك)) (ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٤٦).

لنقرأ هذه الفقرات من مكاتيب الإمام عليه السلام:

- ((وإياكم أن تزلقوا ألسنتكم بقول الزور والبهتان والإثم والعدوان فإنكم إن كففتم

ألسنتكم عما يكرهه الله مما نهاكم عنه كان خيرا لكم عند ربكم من أن تزلقوا ألسنتكم به)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ١١٢).

يحذر الإمام عليه السلام هنا من معاصي اللسان ويذكر ما يؤدي إلى هذه الآثام ويظهر دقته في اختيار الألفاظ كـ ((الزور)) وال((البهتان)) و((الإثم)) و((العدوان)) والجامع بين كلها هو الكذب. و ذلك أن لكل من هذه الألفاظ معنى ودلالات خاصة. ((أن الزور هو الكذب الذي قد سوي وحسن في الظاهر ليحسب أنه صدق وهو من قولك زورت الشيء إذا سويته وحسنته، وفي كلام عمر: زورت يوم السقيفة كلاما، وقيل أصله فارسي من قولهم زور وهو القوة وزورته قويته، وأما البهتان فهو مواجهة الانسان بما لم يحبه وقد بهته)) (أبو هلال العسكري، ١٩٩٧م، ١: ٢٦٨).

- ((صبّر نفسك عند كل بلية في ولد أو مال أو رزية فإنما يقبض عاريته ويأخذ هبته ليبلو فيهما صبرك وشكرك وارج الله رجاء لا يجريك على معصيته وخفه خوفا لا يؤيسك من رحمته)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ٢٠٩).

استخدم الإمام عليه السلام كلمتي ((الصبر)) و((الشكر)) للإشارة إلى أن المصائب التي تحل على الإنسان كلها لغرض ابتلاء وامتحانه من قبل الله تعالى وبعضها تحتاج إلى الصبر والبعض الآخر يقتضي الشكر أيضا. كما يوصي العبد أن يكون بين حالتي الخوف والرجاء لأن الرجاء يمنعه من اليأس والخوف يبعده من المعصية. واختار لفظة ((الرجاء)) بدل ((الأمل)) وذلك لما بينهما من هاتين اللفظتين من فروق في الدلالة والمعني. إذ قيل الأمل يكون في الممكن والمستحيل ولكن الرجاء يختص بالممكن (أبو هلال العسكري، ١٩٩٧م، ١: ٧٨).

- ((وإياكم أن تشره أنفسكم إلى شيء مما حرم الله عليكم فإنه من انتهك ما حرم الله عليه هاهنا في الدنيا حال الله بينه وبين الجنة ونعيمها ولذتها وكرامتها القائمة الدائمة لأهل الجنة أبد الآبدين)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ١١٢).

كما تجلت دقة الإمام في اختيار الألفاظ في وصف الجنة إذ ذكر النعيم واللذة والكرامة ووصفها بالدائمة وذلك كله لقصد الترغيب في طاعة الله والنهي عن انتهاك حرمة الله التي تحول بين الإنسان وبين الجنة بهذه الأوصاف.

ويلاحظ هنا أن هذا باب دقيق المسلك ويدل على حذق الأديب ودرايته إذ اختار الإمام الألفاظ اختيارا حسنا ووضعها في مواضعها اللائقة بها وزاد كلامه به جمالا وتألقا. كما نلاحظ أن الفصاحة هي الصفة الغالبة على ألفاظ الإمام الصادق عليه السلام في مكاتيبه إذ لا يعثر المتأمل في جواهر كلامه على ما يبعد كلامه عن الفصاحة.

لم يحظ كلام الإمام عليه السلام بحسن الاختيار في الألفاظ فقط بل تعدي هذا الحسن الألفاظ ليصل إلى التراكيب وهي عملية ((تقوم على أن الأديب يختار من الخصائص التعبيرية المتاحة له ما يراه وافيا بأغراضه الجمالية وهذه الخصائص اللغوية المختارة هي التي تكون الملامح التي يمتاز بها أسلوبه)) (الدراسات الأسلوبية في التراث العربي، ٥). وهذا الاختيار الحسن في التراكيب ما سمي واشتهر عند الإمام عبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم.

- ((واعلموا أنه بئس الحظ الخطر لمن خاطر الله بترك طاعة الله وركوب معصيته فاختار أن ينتهك محارم الله في لذات دنيا منقطعة زائلة عن أهلها على خلود نعيم في الجنة ولذاتها وكرامة أهلها ويل لأولئك ما أخيب حظهم! وأخسر كرتهم! وأسوأ حالهم عند ربهم يوم القيامة!)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ١١٢).

ما يلفت الانتباه في هذه الفقرة من كلام الإمام الصادق عليه السلام ويظهر جمال التعبير وحسن اختياره للأسلوب المناسب هو التعجب الذي ذكره الإمام في كلامه! وذلك بعد أن قارن بين حالة الدنيا الزائلة بالجنة الخالدة وهذه المقارنة نفسها تزيد الكلام روعة إذ به مقابلة وتضاد بين صفات الدنيا والجنة. وفي هذا الأسلوب (التعجب) نوع من الحسرة على هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يصلوا إلى نتيجة تنفعهم من المقارنة بين الدنيا والجمة ولذلك آثروا ما هو فان زائل على ما هو باق خالد!

- ((وإياكم وسب أعداء الله حيث يسمعونكم.. وإياكم والعظمة والكبر .. وإياكم أن يبغي بعضكم على بعض .. وإياكم أن يحسد بعضكم بعضا .. وإياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم .. وإياكم وإعسار أحد من إخوانكم المسلمين أن تعسروه بالشيء يكون لكم قبله وهو معسر و..)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ١١٦- ١١٧).

اختار الإمام الصادق عليه السلام أسلوب التحذير في مواعظه للنهي عن بعض الرذائل

الأخلاقية كالحسد والكبر والسب و... واختار أسلوب التحذير بلفظ ((إياك)) لينبه المتلقي على قباحة هذه الأفعال أو الأخلاق ويدل هذا الأسلوب على شدة نهي الإمام عليه السلام عنه إذ كان بإمكانه أن يأتي بأفعال ناهية ولكن استعمال هذا الأسلوب أعطي النص جمالا خاصا فضلا عن إضفاء الوضوح الدلالي.

- ((فبارك لي، والمقام المحمود فابعثني، وسلطانا فاجعل لي، وظلمي وجهلي وإسرافي في أمري فتجاوز عني، ومن فتنة المحيا والممات فخلصني، ومن الفواحش ما ظهر منها وما بطن فنجني ومن أوليائك يوم القيامة فاجعلني)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ٢٨٠).

فلا يخفى عن كل باحث دقيق أن الفروق بين المعاني النحوية كثيرة والأديب البليغ الماهر هو الذي يحسن الاختيار فيما يؤدي معناه على أدق وجه ممكن وهذا الاختيار يشبه اختيار الأصباغ كما مثل به عبد القاهر الجراجاني إذ قال: ((وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش فكما أنك تري الرجل قد تهدي في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخير والتدبر في أنفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها إلى ما لم يتهد إليه صاحبه فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو ووجوهه التي عملت أنها محصول النظم)) (الجرجاني، ١٩٨٤م، ٨٧). مما ظهر من جمال البلاغة في هذه الفقرة هو تقديم المفاعيل على الأفعال وكذلك تقديم الجار والمجرور على العامل المتعلَّق، فلا شك أن الكلام الذي يبدعه الأديب على الترتيب اللفظي ويتم عن وعي وإدراك وكل تقديم وتأخير في العمل الأدبي إنما هو مقصود ويعمد الأديب ذلك ويهدف من ورائه إلى الوصول إلى غايته التي من أجلها أنشأ عمله. وإذا أمعنّا النظر في هذه العبارات نلاحظ أن الإمام يقصد تعجيل المسرة في تقديم بعضها (والمقام المحمود فابعثني، وسلطانا فاجعل لي)) والتخصيص في بعضها الآخر (ومن فتنة المحيا والممات فخلصني، ومن الفواحش ما ظهر منها وما بطن فنجني)) والتفاؤل في الأخير (ومن أوليائك يوم القيامة فاجعلني)).

- **التناسب والانسجام:**

ولا شك أن طبيعة العمل الفني تقوم على العنصر الهام وهو التناسب والانسجام بين العناصر الأولية التي يتشكل منها العمل الفني وبعد ذلك يتحقق الجمال فيه لأن ((الجمال قوام الفن أو صفة لازمة له لذا وجب أن تتوفر في الفن قواعد الجمال التي تباري في تعديدها وتصنيفها الباحثون)) (غريب، ١٩٥٢م، ٥). كما نجد هذه الأهمية للانسجام عند ابن طباطبا (ت٣٢٢هـ) ويدعو للتنسيق في كل الصناعات وخاصة في الأدب ليتحقق الجمال ويتم، فنراه مثلا يطلب من الشاعر أن يكون ((كالنساج الحاذق الذي يفوف وشيه بأحسن التفويف ويسديه وينيره ولا يهلهل شيئا منه فيشينه وكالنقاش الرفيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه ويشبع كل صبغ منها حتى يتضاعف حسنه في العيان وكناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمن الرائق ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها)) (ابن طباطبا العلوي، ١٤٠٢هـ، ١١).

فجلي لنا بالتأمل في كلام الإمام الصادق عليه السلام أن أسلوب الإمام عليه السلام تكون ألفاظه وجمله حسنة التركيب جيدة السبك خالية من التكرار الممل يختار اللفظة المعبرة المستكملة لشروط الفصاحة والتراكيب الخالية من التعقيد فبعد أن توفر له كل ذلك فخليق به أن تكون عباراته منسجما بعضها مع بعض حتى يكون لها الجرس المطرب والإيقاع المميز على أن يكون بعيدا في ذلك كله عن التكلف والصنعة.

- ((ثم نظرت العين إلى العظيم من الآيات من السحاب المسخر بين السماء والأرض بمنزلة الدخان لا جسد له يلمس بشيء من الأرض والجبال يتخلل الشجرة فلا يحرك منها شيئا ولا يهصر منها غصنا ولا يعلق منها بشيء يعترض الركبان فيحول بعضهم من بعض من ظلمته وكثافته ويحتمل من ثقل الماء وكثرته ما لا يقدر على صفته مع ما فيه من الصواعق الصادعة والبروق اللامعة والرعد والثلج والبرد والجليد ما لا تبلغ الأوهام صفته ولا تهتدي القلوب إلى كنه عجائبه)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ٤١).

يجد المتأمل تناسب الألفاظ في العبارات إذ هناك علاقة وتناسب بين ألفاظ الطبيعة كـ ((السحاب)) و((السماء)) و((الأرض)) و((الجبال)) و((الدخان)) و((الشجرة))

و((الغصن)) و((الماء)) و.. والجامع بين كل هذه أنها آيات الله في الكون وتهتدي العيون الناظرة إليها إلى الله تعالى لو لم تقتصر على المشاهدة الصرفة بل تجاوزتها إلى القلوب التي تسعي لتكسب المعرفة والبصيرة في طريق الحق.

- ((فلك الحمد إلهي! فكم من عدو انتضي عليّ سيف عداوته وشحذ لي ظبة مديته وأرهف لي شبا حده وداف لي قواتل سمومه وسدد نحوي صوائب سهامه ولم تنم عني عين حراسته وأضمر أن يسومني المكروه ويجرعني زعاف مرارته)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ٢٧٧).

جاء الإمام عليه السلام بالمعني الواحد بأساليب مختلفة وبالتعابير المتفاوتة مع أن كلها تدل على معنى وذلك عداوة العدو له وتجلت البلاغة في هذه الفقرات واضحة كما عرفها جعفر بن يحيي إذ قال:))البلاغة أن يكون الإسم يحيط بمعناك ويجلي عن مغزاك وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بطول الفكرة ويكون سليما من التكلف بعيدا من سوء الصنعة بريئا من التعقيد غنيا عن التأمل)) (أبو هلال العسكري، ١٤٠١هـ، ٥٣).

فمما يجدر بنا أن نشير إليه هو أن البلاغة بمفهومها الفني الذي يقصد من ذلك جودة العمل الأدبي قديمة قدم الأدب نفسه لأنها تكون مرادفة له فالشعراء منذ العصر الجاهلي والإسلامي كانوا يقفون عند اختيار الألفاظ والمعاني والصور وكانوا أحيانا يسوقون ملاحظات لا ريب في أنها أصل الملاحظات البيانية في البلاغة العربية (عبد الرحمن، ١٩٧٩م، ٩٨). وإليكم بعض النماذج من الأقسام المختلفة للبلاغة وخاصة المحسنات اللفظية في مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام:

- **الاقتباس: من نماذج اقتباساته من القرآن الكريم على سبيل المثال لا الحصر:**

((وقد قال الله تعالى وقوله الحق: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران ٣: ١٤٤) وذلك ليعلموا أن الله يطاع ويتبع أمره في حياة محمد وبعد قبض الله محمدا وكما لم يكن لأحد من الناس مع محمد أن يأخذ بهواه ولا رأيه ولا مقاييسه..)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ١٢٩).

((أهل الوعيد من أهل الجنة وأهل النار ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ (التوبة ٩: ١٠٢))) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ٩٨).

((فاعرفوا منزلتكم فيما بينكم وبين أهل الباطل فإنه لا ينبغي لأهل الحق أن ينزلوا أنفسهم منزلة أهل الباطل لأن الله لم يجعل أهل الحق عنده بمنزلة أهل الباطل ألم يعرفوا وجه قول الله في كتابه إذ يقول: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص ٣٨: ٢٨) أكرموا أنفسكم عن أهل الباطل)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ١٢١).

وفي كلامه عن الصبر واليسر بعد العسر قال مخاطبا حفص بن غياث داعيا إياه بالصبر والاستقامة مزينا كلامه بتسعة آيات من القرآن الكريم منها: (المزمل ١١:٧٣و ١٢؛ فصلت٤١: ٣٤و٣٥؛ الحجر ١٥: ٩٧و ٩٨؛ الأنعام ٦: ٣٣و ٣٤؛ ق ٥٠: ٣٨و٣٩؛ و...) وقال له: يا حفص إن من صبر صبر قليلا وإن من جزع جزع قليلا وعليك بالصبر في جميع أمورك فإن الله بعث محمدا فأمره بالصبر..)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ٢٤١).

وأحيانا يكون الاقتباس بصورة غير مباشرة مثلا في هذه الموعظة القصيرة لم يذكر إلا الآيات القرآنية: ((من اتقي الله وقاه، ومن شكره زاده، ومن أقرضه جزاه)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ١٥٣).

العبارة الأولي تشير إلى هذه الآية المباركة ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف ٧: ٣٥)؛ والعبارة الثانية تلمح إلى هذه الآية المباركة ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (الإبراهيم ١٤: ٧)؛ والعبارة الثالثة مقتبسة من الآية ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد ٥٧: ١١).

- التضمين: يضمن الإمام كلامه وخاصة في مواعظه بكثير من الأحاديث ويزودنا بكلام النبي صلى الله عليه وعلى آله وآبائه من الأئمة الأطهار عليهم السلام منها هذه النماذج:

((واعلم أني سمعت أبي يحدث عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سمع النبي يقول لأصحابه يوما: ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعانا وجاره جائع)) (الأحمدي

الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ١٤٦)؛ ((وسأنبئك بهوان الدنيا وهوان شرفها على ما مضي من السلف والتابعين فقد حدثني محمد بن على بن الحسين عليه السلام قال: لما تجهز الحسين إلى الكوفة أتاه ابن عباس فناشده الله والرحم أ)) يكون هو المقتول بالطف فقال أنا أعرف بمصرعي منك وما وكدي من الدنيا إلا فراقها)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ١٤٧). ونماذجه في مكاتيبه عليه السلام كثيرة ويضمن كلامه غالبا على هذا الشكل بأنه يذكر موضوعا أولا وبعده يوثق كلامه بذكر حديث عن النبي أو آبائه الطاهرين عليهم السلام.

- السجع: السجع أصل يدل على صوت متوازن من ذلك السجع في الكلام وهو أن يؤتي به وله فواصل كقائفي الشعر (ابن فارس، ١٤٠٤هـ، ٣: ١٣٥). والسجع إذا كان من غير تصنع وتكلف ولم تظهر سماجته ولم يثقل استماعه سيكون آية من آيات البلاغة ودلائل الفصاحة وأحسن السجع ما سلم من التكلف وبري (نكلسون، ٢٠١١م، ١٥٥). قد تحتوي مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام وخاصة في الأدعية أنواعا مختلفة من السجع لما لهذا العنصر البلاغي الهام دور فعال في التنشيط الموسيقي للكلام. منها هذا المثال التالي الذي ظهر جمال السجع والموسيقى:

((يا هادي الطريق، يا فارج المضيق، يا إلهي بالتحقيق، يا جاري اللصيق، يا ركني الوثيق، يا كنزي العتيق، أحلل عني المضيق، واكفني شر ما أطيق، وما لا أطيق؛ يا أهل التقوي والمغفرة، وذا العز والقدرة، والآلاء والعظمة؛ يا أرحم الراحمين، وخير الغافرين، وأكرم الناظرين، ورب العالمين؛ لا تقطع منك رجائي، ولا تخيب دعائي، ولا تجهد بلائي، ولا تسئ قضائي؛ ولا تجعل النار مأواي، واجعل الجنة مثواي، وأعطني من الدنيا سؤلي ومُناي، وبلغني من الآخرة أملي ورضاي)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ٢٩٠).

مما يلفت الانتباه أن السجع قد تغير في هذا المقطع القصير خمس مرات، ولكل قسم منه جمال وهيبة موسيقية رائعة تتراوح الحروف بين اللين والشدة لتجذب الانتباه. وتعتبر هذه الأسجاع من السجع الحسن إذ تتسم بالصفات الأربع التي ذكرها ابن الأثير وهي:))اختيار مفردات الألفاظ، حسن التأليف بينهما، كون اللفظ تابعاً للمعني لا العكس وكون كل فقرة من الفقر دالة على معنى يخالف ما تدلّ عليه الأخرى، و إلا كان تطويلاً)) (ابن الأثير،١٩٩٩م: ٢١٠). كما أن مبدأ التناسب يلزم الناثر أن يبني كلامه متوازنا وهذا التوازن

تحقق هنا بتساوي الفصول، إذ يتحقق بأحد الطريقين: الأول تساوي الفصول والآخر المراوحة بين الطول والقصر بحيث يكون الفصل الثاني أقصر من الأول وهذا لا شك كفيل بصيانة الكلام عن التكلف كما أنه يضفي على النص بعدا إيقاعيا تستريح له النفس (صالح خلف الربيعي، ١٩٩٦م، ٢١٤).

- التضاد: التقابل أو الطباق أو المطابقة أو التضاد أو المخالفة أو التكافؤ أو التناقض أو المماثلة من المحسنات المعنوية وهو من أهم الحقول الدلالية في علم الدلالة. وهو يعني: ((تعاكس الدلالة والكلمات ذات الدلالات المتعاكسة متضادات.)) (بالمر،١٩٩٧م: ١٤) من نماذج التضاد في مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام هي:

((ثم سلوا الله أن يعطيكم الصبر على البلاء في السراء والضراء والشدة والرخاء مثل الذي أعطاهم)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧ه، ٤: ١٢٣). والتضاد هنا بين كلمتي السراء والضراء وكذلك بين الشدة والرخاء والتضاد هنا يدل على جميع الحالات العسيرة واليسيرة.

يبدو أن هذا المثال للتضاد ومثله كثير كالتضاد بين السماء والأرض؛ والنور والظلمة؛ والهداية والضلالة؛ الطاعة والمعصية؛ والحسنة والسيئة؛ الذنب والتوبة؛ اليسر والعسر؛ الحق والباطل؛ والحب والبغض من نوع النمط الظاهر الذي يسمي بالنمط السائد، ويقصد به: ((أن يكون التقابل فيه واضحاً لا لبس فيه ولاتعقيد وتكون دلالته قريبة المنال سهلة الإدراك يستوي في تحصيل مقصودها وبيان المراد منها كل من ينظر إليها)) (غازي، ١٤٣٦هـ: ٩٧).

وقال الإمام في موعظة منه مقارنا بين الإنسان الذي أراد الله له خيرا ومن لم يراد له خير مستخدما الأسلوب التقابلي للمقارنة بين الحالتين: ((واعلموا أن الله إذا أراد بعبد خيرا شرح صدره للإسلام فإذا أعطاه ذلك أنطق لسانه بالحق وعقد قلبه عليه فعمل به فإذا جمع الله له ذلك تم له إسلامه وكان عند الله إن مات على ذلك الحال من المسلمين حقا؛ وإذا لم يرد الله بعبد خيرا وكله إلى نفسه وكان صدره ضيقا حرجا فإن جري على لسانه حق لم يعقد قلبه عليه وإذا لم يعقد قلبه عليه لم يعطه الله العمل به فإذا اجتمع ذلك عليه حتى يموت وهو على تلك الحال كان عند الله من المنافقين)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ١٢٣).

واضح أن الإمام عليه السلام أوصل الأفكار والمعاني مختارا الشكل الجميل لكلامه وأظهرها

في صورة حسنة والنظام الحسن وفصاحة اللسان وذلك كما أن بعض علماء البلاغة أشاروا إلى هذا الموضوع بأن الإحاطة بالمعنى ليست بلاغة ((وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيي ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ)) (الرماني، ١٣٨٧هـ، ٧٥).

- **الطبع:**

قد ظهر العنصر أو المقياس الهام في تعيين مدى بلاغة النص في مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام وهو الطبع الذي لا بد منه في كل عمل أدبي أيا كان جنسه وهو بمعني الخليقة أو السجية وتلك القوة الفطرية التي تجعل الأديب أن يمتلك ناصية القول ويبرع فيه. وقد تحدث عن هذا العنصر كثير من العلماء طوال العصور عندما كانوا يشيرون إلى معايير البلاغة ومقاييسها مثل الجاحظ وابن قتيبة وذموا التكلف الذي هو ضد الطبع، وجعلوه أهم الركائز التي تمثل أسباب الجودة في العمل الأدبي وحاولوا في ترسيخه كشرط رئيس للكلام الأدبي و((الطبع موهبة تتمثل في ملكات النفس الأربع التي لا بد وجودها في البليغ ولا حيلة في إيجادها لغير الخالق وهي الذهن الثاقب والخيال الخصب والعاطفة القوية والأذن الموسيقية)) (حسن الزيات، ١٩٧٦م، ٤٤). وكما قال جعفر بن يحيي في وصف الكلام البليغ محذرا من التكلف: ((والذي لا بد منه أن يكون سليما من التكلف بعيدا من الصنعة بريا من التعقيد .. والتكلف طلب الشيء بصعوبة للجهل بطرائق طلبه بالسهولة فالكلام إذا جمع وطلب بتعب وجهد وتنولت ألفاظه من بعد فهو متكلف)) (ابن رشيق القيرواني، العمدة، ١: ٢٤٨).

ويبدو أن الإمام الصادق عليه السلام يتمتع بالموهبة الخاصة ولا غرو في ذلك إذ هو من بيت النبوة وينتسب إلى أفصح الناس كلهم وأبلغهم وهو الرسول محمد صلى الله عليه وآله لأن أحاديثه فضلا عن أنها أقوم طريق إلى فهم القرآن فهي موسومة بطابع البيان والإلهام والعبقرية، وللرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار (صاحب، ٢٠١٤م، ٤٩).

والموهبة من الركائز التي يؤكدها علماء البلاغة إذ قال الجاحظ: ((اعلم أبقاك الله أن صاحب التشديق والتقعير والتقعيب من الخطباء والبلغاء مع سماحة التكلف وشنعة التزيد أعذر من عيي يتكلف الخطابة ومن حصر يتعرض لأهل الاعتياد والدربة ومدار اللائمة

ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف وبيانا يمازجه التزيد إلا أن تعاطي الحصر المنقوص مقام الدرب التام أقبح من تعاطي البليغ الخطيب ومن تشادق الأعرابي القح .. فالحصر المتكلف والعيي المتزيد ألوم من البليغ المتكلف لأكثر مما عنده)) (الجاحظ، د.ت، ١: ١٣).

مما يلفت الانتباه في مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام هو السلاسة والسهولة والانسياب في كلامه؛ إليكم بعض النماذج منها:

- ((وعليكم بطاعة ربكم ما استطعتم فإن الله ربكم واعلموا أن الإسلام هو التسليم والتسليم هو الإسلام فمن سلم فقد أسلم ومن لم يسلم فلا إسلام له ومن سره أن يبلغ إلى نفسه في الإحسان فليطع الله فإنه من أطاع الله فقد أبلغ إلى نفسه في الإحسان)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ١٢٠).

وواضح سلاسة الألفاظ وسهولتها في تعريف الإسلام وما زاد التعبير جمالا وروعة الجناس الاشتقاقي في العبارات بين الألفاظ ((الذسلام)) و((التسليم)) و((سلّم)) و((أسلم)) وتكرار بعض المفردات.

ومن البدهي أن تتميز كلامه بهذه الصفات إذ كل هذه سمات الأدب المطبوع كما ذكر أبو هلال العسكري قائلا:))ومن تمام حسن الرصف أن يخرج الكلام مخرجا يكون له فيه طلاوة وماء والكلام إذا خرج في غير تكلف وكد وشدة تفكر وتعمل كان سلسا سهلا وكان له ماء ورواء ورقراق وعليه فرند لا يكون على غيره مما عسر بروزه واستكره خروجه)) (أبو هلال العسكري، ١٤٠١هـ، ١٨٧) كما أشار إلى هذا الموضوع في المرزوقي ذاكرا بيتا لرؤبة: ((متي رفض التكلف والتعمل وخلي الطبع المهذب بالرواية المدرب في الدراسة لاختياره فاسترسل غير محمول عليه ولا ممنوع مما يميل إليه أدي من لطافة المعنى وحلاوة الفظ ما يكون صفوا بلا كدر وعفوا بلا جهد وذلك هو الذي يسمي المطبوع)) (المرزوقي، ١٣٨٧هـ، ١: ١٢).

ومما لا يفوتنا أن ننبه هنا أن علماء النقد والبلاغة القدامي استعملوا مصطلح الصنعة بمفهومين أحدهما محمود والآخر مذموم والأول هو الصنعة الفنية الناتجة عن الطبع والموهبة والثاني هو التصنيع والتصنع وقد بين شوقي ضيف الفروق بين كل منها (ضيف، د.ت، ١٣ - ٧٠).

ونلاحظ بعد كل هذه الأمثلة والنماذج التي هي غيض من فيض وقليل من كثير أن الصنعة التي جاء بها الإمام في كلامه الصادرة عن الطبع قد جعلت كلامه يزداد جمالا إذ هذه الصنعة من أهم معايير جمال الإبداع الأدبي كما قال الجاحظ: ((وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة وإلى ترتيب ورياضة وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب وتثني به الأعناق وتزين به المعاني)) (الجاحظ، د.ت، ١: ١٤).

إن الإمام عليه السلام قد جمع بين حلاوة الفكرة وجمال الألفاظ في الصياغة اللغوية وقد حقق من خلال هذا الاهتمام مقياس الصنعة وأولي الصياغة اللفظية قدرا من العناية والتوجه ((وأقل الناس حظا في هذه الصناعة من اقتصر في اختياره ونفيه وفي استجادته واستسقاطه على سلامة الوزن وإقامة الإعراب وأداء اللغة ثم كان همه ويغيته أن يجد لفظا مروقا وكلاما مزوقا قد حشي تجنيسا وترصيعا وشحن مطابقة وبديعا أو معنى غامضا قد تعمق فيه مستخرجه وتغلغل إليه مستنبطه ثم لا يعبأ باختلاف الترتيب واضطراب النظم وسوء التأليف وهلهلة النسج ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها ولا يسبر ما بينها من نسب ولا يمتحن ما يجتمعان فيه من سبب لا يري اللفظ إلا ما أدي إليه المعنى ولا الكلام إلا ما صور له الغرض ولا الحسن إلا ما أفاده البديع ولا الرونق إلا ما كساه التصنيع)) (البنداري، ١٩٨٩م، ٤١٣).

- **الترتيب:**

يجد متصفح مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام أن المعاني في كل قسم منها من المواعظ والوصايا والكتابات و.. تكون مرتبة وكأنها مرتبة في نفس الإمام عليه السلام ولذلك جاءت ألفاظه مرتبة وفقا لهذا الترتيب النفسي حيث ((الألفاظ إذ كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها فإذا وجب لمعني أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق وأنك تتوخي الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها وأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في

النطق)) (الجرجاني، ١٩٨٤م، ٥٢).

وكما نلاحظ في هذه النماذج حسن اختيار الإمام الصادق عليه السلام للتراكيب الدقيقة التي تؤدي المعنى على نحو جمالي. ومن خلال هذا يتحقق الانسجام إذ يأخذ كل من عناصر الأسلوب حقه ونصيبه من الاختيار الحسن.

ولعل خير الأمثلة في بيان وتوضيح الترتيب كعنصر بلاغي هام في مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام هي التي تقوم الإمام فيها بذكر المقابلات والمقارنات إليكم بعضها:

- ((إنا أصل الحق وفروع الحق طاعة الله وعدونا أصل الشر وفروعهم الفواحش؛ كيف يطاع من لا يُعرف وكيف يُعرف من لا يُطاع؟)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ٨٧).

يقابل الإمام في هذه الفقرة بين أهل البيت عليهم السلام وبين أعدائهم مشبها كلهم بالأشجار لهم أصول وفروع والمتلقي هو الذي يجد نفسه في فضاء يحيل إلى الخيارين في أثناء مشاهدة الأفعال اللغوية؛ كأن المقابلة هنا من الإستراتيجيات المؤثرة في إيجاد هذا الانسجام والترتيب والتضامن.

- ((فاتقوا الله أيتها العصابة الناجية إن أتم الله لكم ما أعطاكم به فإنه لا يتم الأمر حتى يدخل عليكم مثل الذي دخل على الصالحين قبلكم وحتى تبتلوا في أنفسكم وأموالكم وحتى تسمعوا من أعداء الله أذي كثيرا فتصبروا وتعركوت بجنوبكم وحتى يستذلوكم ويبغضوكم وحتى يحملوا عليكم الضيم فتحملوا منهم ..وحتى تكظموا الغيظ الشديد في الأذى في الله و..... أيتها العصابة المرحومة المفلحة إن الله أتم لكم ما آتاكم من الخير واعلموا أنه ليس من علم الله ولا من أمره أن يأخذ أحد من خلق الله في دينه بهوي ولا رأي ولا مقاييس قد أنزل الله القرآن وجعل فيه تبيان كل شيء ...)) (الأحمدي الميانجي، ١٤٢٧هـ، ٤: ١١٦- ١١٧).

ونلاحظ لتحقيق استراتيجية التأثير في المتلقي استخدم الإمام عدة وسائل خطابية منها ((النداء)) إذ هو من أدات التأثير والاستمالة ويضم أسلوب النداء في جوهره مناديا ومنادي ولا يكون النداء في فراغ إذ يقتضي الأمر وجود طرفين بينهما علاقة من نوع ما

استلزمت مقامي توبيف هذا الأسلوب خاصة وقد اهتم النحاة بهذا الأسلوب ذاكرين العلاقة بينه وبين الأسلوب المقامي (ابن عقيل، ١٩٨٠م، ٣: ٢٥٤).

كما استخدم الإمام في هذه الفقرات أسلوب ((النفي + حتى + الفعل المضارع المنصوب)) وهذه الأداة ((حتى)) ناصبة للفعل المضارع ولا تكون للغاية أو التعليل بل بمعني ((إلا أن)) أو ((إلى أن)) وقيل إن ((لحتى الداخلة على المضارع المنصوب ثلاثة معان: مرادفة إلى نحو (حتى يرجع إلينا موسى) ومرادفة كي التعليلية نحو (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم) (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) وقولك (أسلم حتى تدخل الجنة) ويحتملها (فقاتلوا التي تبغى حتى تفئ إلى أمر الله) ومرادفة إلا في الاستثناء)) (ابن هشام الأنصاري، ١٤٠٤هـ، ١: ١٢٥). وكأنه عليه السلام ذكر الشروط لأن يتم الأمر الذي أشار إليه في أوّل كلامه وكل هذه صفات أخلاقية حسنة لا بد للإنسان أن يتحلى بها.

فتبين لنا من هذه النماذج اختيار الإمام الصادق عليه السلام الدقيق الحسن للأداة التي تناسب المعنى المراد وظهرت دراية الإمام وعلمه بإمكانات اللغة التعبيرية وتمكنه من توظيفها جماليا وراعي أصل الترتيب في الكلام بمعني أنه اختار موقع اللفظة من كل جملة واتبع الأسلوب الجميل الذي يوصل الفكرة والمضمون.

الخاتمة والنتائج:

يمكننا بعد هذه الجولة ونحن كنا نبحث عن جماليات البلاغة في مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام أن نستنتج ما يلي:

- استعمل الإمام الصادق عليه السلام في مكاتيبه من الفنون البديعية ما جاءت ملائمة للمعني دون تكلف أو تعسف في طلبها.
- اجتناب المفردات الغريبة في مكاتيب الإمام عليه السلام دليل اقتداره ونقاء ذوقه.
- اقتباسات الإمام الصادق عليه السلام من القرآن وتضميناته أحاديث النبي وآبائه الطاهرين عليهم السلام تدل على أن الإمام كان يعيش مع القرآن فكرا وسلوكا، وطريقه في الحق لم يكن يختلف عن طريق آبائه الهداة.

- قد أخذت الدقة في اختيار المفردات حيزا واسعا في إبراز جمال البلاغة عند الإمام عليه السلام إذ أحسن الاختيار وأصاب اللفظة التي تعبر عن المعنى المراد الدقيق.
- نظم الكلام عند الإمام عليه السلام يؤدي إلى تعدد طرق التعبير عنده بتعدد السياقات مع أن الغرض واحد.
- تتسم مكاتيب الإمام الصادق عليه السلام بالتلاؤم الجمالي الذي تجلي في كلامه الحسن في السمع، وسهولته في اللفظ، والشكل الحسن، والدلالة الواضحة.
- ظهر حسن اختيار الإمام الصادق عليه السلام للمعاني النحوية عند صياغه عباراته واختار المعاني التي تكون أكثر ملائمة في التعبير عن المعنى المراد.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير ما نبتدئ به القرآن الكريم.

١- ابن الأثير، ضياء الدين. (١٩٩٩م). المثل الثائر في أدب الكاتب والشاعر. تح: محمد محي الدين عبدالحميد. بيروت: المكتبة العصرية.

٢- ابن سنان الخفاجي، عبد الله بن محمد. (١٣٨٩هـ). سر الفصاحة. شرح: عبد المتعال الصعيدي. القاهرة: مكتبة صبيح.

٣- ابن طباطبا العلوي، محمد. (١٤٠٢هـ). عيار الشعر. تح: عباس عبد الستار. بيروت: دار الكتب العلمية.

٤- ابن عقيل، عبد الله بن عقيل. (١٩٨٠م). شرح ابن عقيل. ط ٢٠. القاهرة: دار التراث.

٥- ابن فارس، أحمد بن فارس. (١٤٠٤هـ). معجم مقاييس اللغة. تح عبد السلام محمد هارون.: مكتبة الإعلام الإسلامي.

٦- ابن هشام الأنصاري، جمال الدين بن يوسف. (١٤٠٤هـ). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. قم: منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي.

٧- أبو هلال العسكري، حسن بن عبد الله. (١٤٠١هـ). الصناعتين الكتابة والشعر. تح: مفيد قميحة. بيروت: دار الكتب العلمية.

٨- ـــــــــــــــ. (١٩٩٧م). الفروق اللغوية. تح: محمد إبراهيم سليم. القاهرة: دار العلم والثقافة.

٩- الأحمدي الميانجي، على. (١٤٢٧هـ). مكاتيب الأئمة عليهم السلام. تحقيق ومراجعة: مجتبى فرجي. قم: مركز بحوث دار الحديث.

١٠- البسيوني، محمود. (١٣٩٨.ق). طرق تعليم الفنون. القاهرة: دار المعارف.

١١- البنداري، حسن. (١٩٨٩م). قيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

١٢- الجاحظ، عمرو بن بحر. (د.ت). البيان و التبيين. تح: عبد السلام هارون. د.م: دار الفكر للطباعة والنشر.

١٣- الجرجاني، عبد القاهر. (١٩٨٤م). دلائل الإعجاز. التعليق: محمود شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي.

١٤- حسن عباس، فضل. (١٩٩٧م). البلاغة فنونها وأفنانها. ط٤. الأردن: دار الفرقان للنشر والتوزيع.

١٥- الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن. (١٩٨٤م). الإيضاح في علوم البلاغة. شرح: محمد عبد المنعم خفاجي. القاهره: مكتبة الكليات الأزهرية.

١٦- الرماني، على بن عيسر. (١٣٨٧ه). النكت في إعجاز القرآن. تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام. القاهرة: دار المعارف.

١٧- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. (٢٠٠٨م). الملل والنحل. تح: محمد عبدالقادر الفاضلي. صيدا: المكتبة العصرية.

١٨- الغازي، حوراء. (١٤٣٦هـ). التقابل الدلالي في الصحيفة السجادية. كربلاء: الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة.

١٩- القرشي، الشيخ باقر الشريف. (١٩٩٢م). حياة الإمام الصادق عليه السلام دراسة وتحليل. بيروت: دار الأضواء.

٢٠- المبارك، مازن. (د.ت). الموجز في تاريخ البلاغة. د.م: دار الفكر.

٢١- المرزوقي، أحمد بن محمد. (١٣٨٧هـ). شرح ديوان الحماسة. تح: أحمد أمين وعبد السلام هارون. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٢٢- بالمر، فرانك. (١٩٩٧م). المدخل إلى علم اللغة. تر: خالد محمود جمعة. الكويت: دار العروبة.

٢٣- حسن الزيات، أحمد. (١٩٦٧م). دفاع عن البلاغة. القاهرة: عالم الكتب.

٢٤- صاحب، أمين حسن. (٢٠١٤م). تاريخ الأدب العربي الإسلامي. النجف الأشرف: مؤسسة النبراس للطباعة.

٢٥- ضيف، شوقي. (د.ت). الفن ومذاهبه في الشعر العربي. القاهرة: دار المعارف.

٢٦- عبد الرحمن، منصور. (١٩٧٩م). اتجاهات النقد الأدبي من الجاهلية حتى نهاية القرن الرابع الهجري. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

٢٧- غريب، روز. (١٩٥٢م). النقد الجمالي وأثره في النقد الغربي. بيروت: دار العلم للملايين.

٢٨- صالح خلف الربيعي، حامد. (١٩٩٦م). مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء. المملكة العربية السعودية: مكتبة الملك فهد الوطنية.

٢٩- محمد حسن، حسن. (د.ت). الأصول الجمالية للفن الحديث. د.ن: دار الفكر العربي.

٣٠- نكلسون، رينولد. (٢٠١١م). تاريخ الأدب العباسي. ترجمة وتحقيق صفاء خلوصي. بيروت:الدار العربية للموسوعات.